الأرض الطيبـــة

مقتبسة عن رواية للكاتبة الأميركية

بيرل بك

متى ترحم السماء وانج لانج ويعود الى ارضه الطيبة التي اضطره هجرها الى الجنوب القحط والمجاعة، حيث يجر عربة الريكشاه ينقـل بهـا الموسـرين، وحيث تستجدي امرأته الأكف الرحيمة على قارعة الطريق ، وقد مدت الى المارة يد وضمت بالأخرى الى صدرها العاري طفلتها الهزيلة لاستدرار الرحمة، وحيث ينتشل طفليه الصغيرين قطعة لحم غفل عنها جزار أو زهرة قـرنبيط مـن أرض مزارع الى جانب الإستجداء ، فلا يكفي ما يجمعونه لشراء عصيدة الأرز حيـث تباع بثمن بخس للفقراء يسدون بها مسغبتهم.

ويرقب وانج لانج طفلته تحبو ذات مساء إذ تلفح وجهه ريح رطبة فيثـور في نفسه حنينه الى أرضه فيخاطب والده الشيخ مرتفع الصوت: "في مثل هذا اليوم تقلب الحقول وتبذر." ويجيبه الوالد: "أعلم ما يدور في خلدك ولكننا سـنعود الـى الأرض ما دامت الأرض تنتظرنا هناك."

ويبلغ بوانج لانج الحنين مبلغه إذ يتمثلها مستلقية تنتظره، خصبة بأمطـار الربيع فيدخل الكوخ ويخاطب زوجته بخشونة: "لو كنت أملك ما يباع، لعدت الـى الأرض."

وتجيبه الزوجة بهدوء وهي تغسل الأرز: "لانملك ما يباع سوى الطفلة."

ويمسك وانج لانج لهاثه ثم يصيح: "أنا لاأبيع طفلة!" وتجيبه: "ولم ؟ أهلي باعوني الى البيت الكبير كي يستطيعوا العودة الى ديارهم."

"أو تبيعين طفلة لهذا السبب؟

"لو لم يكن غيري لقتلتها على أن أبيعها. أمة للإماء كنت في البيت الكبير ، ولكن.. أبيعها لأجلك لنعود الى الأرض."

"لن أرضى أبدا، ولو بقيت في العوز كل حياتي."

وعند خروجه يراوده الخاطر عن عزمه وهوينظر الى الطفلة "ربما باعها لو لم تستلق في حجره ولم تبتسم له."

وتخطر الأرض في باله فيصيح بإشفاق: ألن أرها مـرة أخـرى؟ بـرغم الجهد والإستجداء لا نجد ما نطعم به."

ويجيبه من العتمة صوت عميق: "لست الرجل الوحيد الذي يعاني.. هناك شبيه بك مئات المئات من الرجال في هذه المدينة."

ويرى وانج لانج جاره وزميله في جر الريكشاه يدخن غليونا ويسأله وانج لانج بمرارة: "وهل ستدوم الخالة طويلا؟"

وينفخ الرجل غليونه ثلاثا ويجيب: "كلا .. لن تدوم.. هناك حل للأغنيـاء ان ترفوا.. وهناك حل للفقراء ان أزموا. في الشتاء المضي بعت طفلتي، واليـوم أنتظر امرأتي لتلد بنتا أبيعها هي الأخرى. أبقيت على جارية واحدة هي بكـري، أما الأخريات فخير لهن أن يبعن على أن يوأدن، ولو أن هناك من يفضل وأدهـن منذ تنطلق أنفاسهن."

ويشير الرجل بمقبض غليونه الى حائط قصر خلفهم "أرأيت الى مـا وراء هذا الجدار؟" ويهز وانج لانج رأسه نفيا محملقا، ويستمر الرجل بقولـه: "أخـذت واحدة من جواري لأبيعها، ورأيت - انك لاتصدق لو أخبرتك بوفرة ما يدخل وما يخرج من القصر من مال.. ولكنني أقول لك- حتى الجواري يحلين آذانهن بأقراط اللؤلؤ والعقيق ، ويخطن اللآلئ على أحذيتهن ويرمينها بما عليهـا لـو أصـابها التلف."

ويسحب الرجل أنفاسه، ويصغي اليه وانج لانج فاغر الفم: "هنـاك حـل للأغنياء ان ترفوا" ويصمت الرجل لحظة ويضيف باللهجة نفسها كأنما لم يتحدث عن أمر ذي بال "حسنا .. عد الى عملك" ويختفي في الظلام.

ولكن وانج لانج لم ينم ليلته وهو يفكر بالفضة والـذهب خلـف الجـدار. وعاوده الإغراء ببيع طفلته ولكنه يفكر ويجيب نفسه: "ولو اني استعضت عنها من المال ما يكفي لعودتنا الى الأرض، فأين لي أن أشتري ثورا وطاولة وسريرا مرة أخرى؟ أأبيع طفلة لأهلك جوعا هناك؟ انني لاأملك حتى ثمن بذار للأرض.

ولم يجد وانج لانج حلاّ لأزمته كما تكلم الرجل. ويقف وانج لانج يوما في طرف حلقة من زملائه التعساء.. لاحديث لهم سوى المال، ما دفعوه ثمنا لـذراع

قماش أو لسمكة صغيرة، أو ما ربحوه في يومهم. وينتهي حديثهم دائما عما يفعلوه لو أنهم يملكون ما يملك الرجل وراء الجدار من ذهب وفضة وجواريه من للآلـئ وزوجته من يواقيت.

ويصغي وانج لانج الى أحلامهم بالطعام اللذيذ والنوم الهنيء والمقامرة في دار الشاي ، وباقتناء النساء الحسان، وأخيرا بالإنقطاع عن العمل كما يفعل الرجل وراء الجدران.

أما هو وانج لانج فما أبعد أحلامه عن أحلامهم، انه لاينتسب اى الزمـرة المتشبثة بجدران قصر الرجل الغني، انه ينتسب الى الأرض. لايقدر على العـيش بانطلاق وراحة ان لم يشعر بتربتها تحت أقدامه. يقبع المحراث في الربيع ويحمل المنجل في الحصاد. في أعماقه تكمن رغبة آبائه، رغبة امتلاك الأرض.

ويصيح وانج لانج: "لو أن بيدي الذهب والفضة والجواهر لاشتريت بهـا أرضا طيبة أنتج منها محصولا جيدا."

ويتحد زملاؤه في الإنقلاب عليه والسخرية منه : "هنا قروي جلف أحمـق لايدري شيئا من مسرات المدينة ووسائل إنفاق المال، ويفضل أن يعمـل كالعبـد وراء ثور أو حمار." وكل يظن نفسه أجدر بمال الغني من وانـج لانـج لأنهـم يحسنون به التصرف، أما فلم يغير التعنيف رأيه وهمس لنفسه: "مهما يكـن مـن أمر، أضع الذهب والفضة والجواهر في أرض خصبة طيبة."

وهكذا يستيقظ في الأرض تفكيره وغرامه فلا يعود له عنها صبر. وحتى في أحلامه تتمثل له الأرض.

* * *

تمر الحوادث بوانج لانج غريبة في المدينة كل يوم فيقبل غرابتهـا بغيـر سؤال. مثال ذلك ما حدث في ذلك اليوم إذ يوزع رجل أنيق اوراقا هنـا وأوراقـا هناك بين الجموع المحتشدة حول حدث جديد.

ولم يستطع وانج لانج أن يدرك ما كتب على الورق لأميته، ولكـن أثـار انتباهه صورة رجل قتيل يتدفق من جنبيه وصدره الدماء، رجل يشبه وانج لانـج

نفسه، نحيلا ، شاحبا، أسود الشعر، يرتدي ثيابا زرقاء مهلهلة وقد انكـب فـوق القتيل رجل ضخم الجثة يطعنه بسكين طويلة طعنات متتالية.

ويحملق وانج لانج في الورة المؤثرة دهشا، ويتمنى لو يفهم ما قيل فيهـا، فيلتفت الى رجل بجانبه ويسأل: "هل تفهم كلمة أو كلمتين فتخبرني عن معنى هذا الشيء الفظيع؟"

ويقول الرجل: "اهدأ واصغ الى ما يقوله المعلم الشاب. سيخبرنا جميعا."

ويصغي وانج لانج الى ما لم يسمع به من قبل ، الـى الرجـل يحـرض الجموع على الثورة ويقول لهم بأن الرجل الميت هو أنفسهم، والقاتل الذي يطعنهم بعد موتهم هم الأغنياء ، وأنهم بؤساء تدوسهم الأرجل ولا يعلمون.

أما وانج لانج فيعلم جيدا أنه بائس فقير ، ولكنه يلوم في ذلك السماء التـي لاتمطر في الفصول أو أنها إذ تمطر ولا ينقطع لها وابل. ولوأن المطر والـشمس يتناوبان في إنماء الزرع فتحمل السنابل القمحلما وجد وانج لانج نفسه بائسا.

ويصغي وانج لانج الى الشاب لعله يبحث هذه المسألة التي يهمه أمرهـا، ولما لايفعل يجترئ ويسأل: "سيدي، اهناك طريقة يـستطيعها الأغنيـاء الـذين يضطهدوننا في إنزال المطر حتى أستطيع العمل في الأرض؟

ويجيبه الشاب مؤنبا غاضبا: "ما أجهلك ياهذا يامن لاتزال تلـبس رأسـك الضفائر الطويلة. من يقدر على إمطار السماء إن لم تفعل ذلك بمحض إرادتهـا؟ ولكن ما يعنينا هذا الأمر؟ لو يقاسمنا الأغنياء ما يملكون، لما كنا بحاجة الى مطر أو غيره لأننا جميعانحصل حينذاك على المال والطعام."

ويلتفت وانج لانج غير مقتنع بينما تنشق الحناجر عن صيحات المستمعين "المال والطعام ينفذان آخر الأمر، ولكن هناك الأرض فان لم ترحمها السماء بغيث وشمس تبدأ المجاعة من جديد."

ومهما يكن من أمر فان وانج لانج يحتفظ بالنشرات الثورية التي أعطـاه اياها الشاب إذ يتذكر بأن زوجته اولان بحاجة اليها في صنع نعال للأحذية.

* * *

الإمتعاض ينتشر في نفوس ساكني الأكواخ ، وتطغي موجاته يوما بعد يوم حتى تصبح سيل الرغبة الوحشية جارفا. أما وانج لانج فبالرغم أنه يرى ويـسمع ما يدور حوله، لم يكن يرغب الا أن تلمس قدماه الأرض مرة أخرى. وتمـر بـه لحظات في ظلام الليل وعندما تمطر السماء على الشوارع أن يثور غضبه علـى حجارتها التي تربط حياته اليها ويصيح فجـأة ، ويرتمـي باكيـا كالأطفـال: "آه للأرض الجميلة أين أنا منها؟"

وتعزيه زوجته أولان بهدوئها المعتاد "عن قريب سنرى حدثا هائلا فلنتظر قليلا، الحديث عنه في كل مكان.. ويقع الحدث في يوم بلغت الأزمة أشـد ّهـا بوانج لانج إذ انقطع العمال عن عملهم ، وأغلقت المطاعم المجانية للفقراء حيـث تباع عصيدة الأرز بسعر بخس ونفذ ما معه من نقود صـغيرة وانقطعـت مـن الدروب حركة السير فلا رجل يستجدي منه. ويأخذ وانج لانج طفلته بين ذراعيـه ويقول بحنان: "ياصغيرتي الحمقاء! أتحبين الذهاب الى البيت الكبير حيث الطعـام والشراب الوفير وثوب يستر عريك؟

وتبتسم الطفلة وتدفع يدها الصغيرة لتلمس عينيه الشاخصتين. فيطفح الألم في نفسه ويصيح بامرأته: "أخبريني ، هل كنت تضربين في البيت الكبير؟

وتجيبه بأسى: "كنت أضرب كل يوم."

ويصيح بها أخرى: "أبحزام أو قضيب خيزران أو حبل؟ "

وتجيبه: "كنت أضرب بسوط جادي كان معلقا على حائط المطبخ."

ويسألها بآخر خيوط الأمل: "ان طفلتنا جميلة ، فاخبريني هـل تـضرب الجواري الجميلات؟"

وتجيبه كأنما هذا الطريق وذاك سيان عندها: "نعم تضرب، أو تتخاطفهـا أيدي أبناء سيد القصر. وحين يملونها يتركونها للخدم يتنابذون ويتناحرون لأجلها. ويحدث هذا قبل أن يكتمل نمو الجارية ان كانت جميلة.

ويئن وانج لانج ويصرخ الألم موجعا في نفسه: "ىه يـا صـغيرتي! يـا صغيرتي المسكينة!"

ويسمع ضجة في الخارج كأنما انشقت السماء . ويرتمي وانج ووالده وزوجته الى الأرض لايدركون ما حدثوقد صعقهم الخوف، وهزيم باب كبير يتحطم ويئن. ومن فرجة باب الكوخ يمد الرجل الذي حادث وانج لانج ذات ليلة وكان يدخن غليونا رأسه ويصيح به: "ألا تزال هنا؟ آنت الساعة وفتح لنا باب القصر الكبير."

وتنفلت أولان بخفة خارج الكوخ، ويقوم وانج لانج متثاقلا دهشا وفي لحظات يجد نفسه داخل قاعات القصر يدور به الناس كدوامة. كل يسلب وينهب ما تقع عليه يده. أما هو فلا يدري ما يفعل . لم يعتد في حياته أن تمتد يده الى مال الغير، وينفلت من بين الجموع ويجد نفسه قريبا من الباب الخلفي للقصر ، منفذ الأمان في القصر ليوم الفرار.

رجل ضخم لم يتح له فرصة الهرب ويخرج من منفذه السري في غرفة خالية يستعد للهرب، فيفاجأ بوانج لانج ويصرخ رعبا كأنما طعن بسكين ويرتجف ويرتمي على قدميه باكيا: "أنقذ حياتي، أنقذ حياتي، لاتقتلني. أملك مالا ، مالا كثيرا."

ويصرخ به وانج لانج بخشونة لم يعهدها في نفسه: "أعطني المال اذن!"

انه بحاجة الى المال، انه في حنين الى الأرض .

ويسلمه الرجل آخر قطعة ذهبية يحملها ويقول ناشجا: "لاامالك الآن سوى روحي التعسة."

فينظر اليه وانج لانج كارها ضعفه ويصيح: "ابعد عن ناظري خير من أن أقتلك كما أقتل حشرة."

هكذا يصيح وانج لانج، من بلغت رقة قلبه مبلغا لايقوى معها على قتل ثور، فينفلت الرجل من أمامه لعجل مذعور، ويبقى وحده والذهب ملء يديه، فيقذف به في جيب قميصه، ويخرج من منفذ الأمان الى كوخه، وداخل ثوبه يشعر بالذهب دافئا، والى نفسه يهمس متطاير الفرح مرة بعد أخرى "سنعود الى الأرض.. سنعود الى الأرض!.."